أساس الفروق الفردية

للاستاذ الحضر السلاوى

كل الناس متشابهون ولكن الافراد يختلفون فيما بينهم وعلى الاخص من ناحية الطبع والقدرات والميول ودرجة الذكاء وغير ذلك من مكونات الشخصية الفردية والى حد أن كل فرد يعتبر اليوم فى نظر علم النفس عالما قائم الذات له مميزاته وطابعه الخاص .

هذه المميزات والخصائص الفردية فى الجسم والطبع والقدرات العقلية هى ما يعبر عنه بالفروق الفردية وهى على جانب كبير من الاهمية ، فى ميدان التربية ومجال التعليم ، لعلاقة التربية بتقويم السلوك وتهذيب الطبع ، ولغايات التعليم التى تسعى لتنمية القدرات العقلية ، وشحذها عن طريق التوجيه ، والمعرفة ، والاساليب العلمية .

لهذه الاهمية ، تبنى علم النفس التربوى مبدا الفروق الفردية ، كحقيقة موضوعية مؤكدة . واصبحت معه الدراسات الاخرى ، المتعلقة بالسلوك ، ومراحل النمو والتعليم ، والصحة النفسية ، موضوعات عامة ، ونسبية ، فى قواعدها وقراراتها . لأن الافراد جميعا لا يتشابهون من الناحية الفردية . ولان لكل منهم من المميزات . والخصائص ، ما يجعله ذاتا منفردة بنفسها . ولان التطبيق العلمى لنظريات علم النفس التربوى ، تأخذ بعين الاعتبار ، والى اقصى حد ، خصائص ومميزات الفرد ، عند جعله فى مجال تربوى ، أو دفعه الى الحركة والعمل فى موقف تعليمى ، ما دامت التربية سلوكا ، وتكيفا لطبيعة الفرد ، وما دام التعليم الحق ، هو نتيجة تفاعل القدرات العقلية الخاصة للفرد . مع مواد التعليم . اى ان التربية والتعليم تكون من الداخل الى الخارج، اى داخل الفرد فى قدراته واستعدادته وطبعه فى مواجهته لعالم الاشياء والبيئة والثقافة السائدة فى الخارج .

فما هى اذن أبعاد هذه الفروق الفردية ؟ انها مختلفة ، ومتنوعة . تشمل بنية الجسم والمظهر العام للشخص ، كما تتعلق بدرجة الذكاء ، والقدرات، ونوع الميول ، والاستعدادات . اى أن الفروق الفردية تشتمل على :

فروق فى الجسم :

كالطول والقصر واللون والملامح العامة للمظهر الخارجى لجسم الانسان وقوة البنية الجسمية او ضعفها كما أن بعض العاهات كقصر النظر او طوله والصلع وضعف السمع هى الاخرى تدخل فى اعتبارات الفروق الفردية الخاصة بالجسم .

فروق فى القدرة العقلية :

كما هو الحال بالنسبة للموهوبين او الاغبياء او متوسطى الذكاء والفروق الفردية فى القدرة

العقلية تتجلى اكثر من حيث الدرجة والكيفية وليس من حيث نوع الذكاء أو أجهزة التفكير .

فروق فردية فى الميول والاستعدادات :

كالافراد الذين لهم ميول فنية ، وآخرين لهم ميول علمية أو ادبية ولغوية ، وآخرين لهم ميول عملية تقنية . كما انه فيما يخص الاستعدادات نجد افرادا لهم استعداد للتعليم والانتباه وآخرين لهم استعداد لهوايات معنية كالمسرح ، أو المطالعة ، أو الكتابة أو غير ذلك .

فروق ناتجة عن الاحتكاك بالبيئة :

فابن البادية غير ابن المدينة وابن الصحراء غير ابن السهول والمراعى كما ان ابن المجتمع الراقى المتطور هو غير ابن المجتمع المتخلف وابن الاسرة الفقيرة المعوزة هو غير ابن العائلة المثقف افرادها الميسورة الحال ، ومن يعاشر رفاق السوء هو غير من يخالط الجماعات المهذبة .

فروق فى السن ومرحلة النمو :

فالصبى هو غير المراهق والطفل لا يشبه فى شىء الراشد لا فى القدرة ولا فى السلوك ولا فى مستوى الخبرة . وفيما يخص مراحل النمو هناك السوى فى نموه وهناك المنحرف وهناك السريع فى نموه ونضجه، وهناك البطىء والمتأخر . كما أن مرحلة النمو تتميز بفروق خاصة فيما بين الجنسين من بنات وبنين .

هذه ثلة من الفروق الفردية على سبيل التعميم ، انما المهم فى الامر هو البحث عن مصدرها وأساسها . لماذا ينسب الافراد لجنس واحد هو الجنس البشرى ومع ذلك يتميز كل واحد منهم بطبع خاص ، وقدرات معينة ، ومميزات خاصة ، لا تجعلهم جميعا على وتيرة واحدة ، أو فصيلة موحدة .

ان أساس الفروق الفردية ثلاثة عناصر هى :

1) الوراثة
2) البيئة
3) الثقافة

فالوراثة ظاهرة طبيعية أصيلة فى نوع الجنس، تتميز بنقل خصائص السلالة الى الابناء ، والاحفاد . فالانسان يلد الانسان ، والحيوان يلد الحيوان ، بل ان الآباء الموهوبين يلدون غالبا أبناء موهوبين أو اذكياء والآباء المعتوهين يلدون أو المصابين بخلل أو نقص فى الذكاء .

وقد اشتهر (مانديل) باكتشافه لقوانين الوراثة . الا أن الذى يهم فى الامر هو أن أبحاث **مانديل فى الوراثة جاءت كدليل عملى وموضوعى** على حقيقة وجود الوراثة وأن اصلها يكمن فى النطفة والخلية وبويضة اللقاح الاولى ، وأن لا سبيل الى تغييرها أو التحكم فيها الا عن طريق اختيار الازواج .

وخصائص السلالة والميزات الفردية أو النوعية توجد بمورثات وكروموزونات البويضة كما اثبت البحث الطبى ذلك ، الا أن سرها وكنه فاعليتها أى فاعلية انتقال أثر الوراثة عبر افراد السلالة لا زال سرا غامضا والذى يهم فى الموضوع هو أن نوعية الوراثة تطبع الافراد بطابع خاص هو طابع السلالة والنسب وأن الافراد يختلفون باختلاف نوعية الوراثة والاصل الذى ينحدرون منه وبذلك كانت الوراثة عاملا من عوامل تشكيل الفروق الفردية واستحال بالتالى تشابه الافراد وتماثلهم فى الطبع والقدرات والشخصية الفردية لاختلاف عناصر الوراثة التى تنتسب اليها كل طائفة منهم .

ولكن ما القول فى الاخوة والاخوات الذين ينتسبون جميعا الى أصل وراثى واحد ؟ انهم

مختلفون كذلك أو بالاحرى ان الفروق الفردية ينطبق رغم انحدارهم من نفس الابوين حيث يكون لكل منهم طابعه الخاص وميزته الفردية الخاصة به . لان للوراثة عوامل اساسية واخرى ثانوية أو طارئة والعوامل الثانوية هى التى تجعل الاخوة والاخوات يتميزون بفروق فردية بحسب نسبة تشبع كل منهم بعوامل الوراثة الاساسية او الثانوية فمن العوامل الثانوية مثلا ما يتجلى فيما قد تتعرض له الام فى حالات الحمل من صدمات نفسية أو حالات مرضية يمتد مفعولها الى الجنين . كما أن لنوع التغذية اثره البالغ فى التكوين البيولوجى للوليد بالاضافة الى ما قد يصاب به الجنين من معوقات خاصة كأن يولد اعمى أو اصم او ابكم فيكون لذلك اثره الخاص فى طبعه وسلوكه يجعله مختلفا كل الاختلاف عن بقية اخوانه واخواته .

والاساس الثانى للفروق الفردية هو البيئة بنوعيها الجغرافية والاجتماعية فابن البادية هو غير ابن المدن المتحضرة وابن السهول الساحلية هو غير ابن مناخ الجبل او ابن طقس الصحراء .

أما عن البيئة الاجتماعية فالفرد هو ربيب المجتمع الذى ينتسب اليه ويتطبع فيه عنوة بأسلوب الحياة فيه ونمط العيش والتقاليد ولا محيد للفرد عن الانصياع لانماط البيئة الاجتماعية والا رفضته او كان شاذا فيها غريبا عنها .

وخلاصة حقيقة أمر البيئة الاجتماعية ان عوامل التأثير فيها اقوى وابلغ من جهود الفرد ولا يتيسر له التملص منها الا فى ظروف استثنائية خاصة أو بمعجزة فردية كما هو الحال بالنسبة للرسل والانبياء او الزعماء والقادة .

وعليه فالفرد مضطر للانصياع لظروف البيئة والانسياق فى تيارها ليكون منها واليها وليضمن التكيف معها ومع امكاناتها وظروفها الخاصة والعامة .

والعناصر التى تحقق تكيف الفرد مع البيئة أو الاتساق معها هى التى تطبع ميزاته الفردية الخاصة وتجعل له من الفروق الفردية ما يختلف به عن بقية الافراد الآخرين الذين ينتسبون الى نفس المجتمع او المجتمعات الاخرى فالفرد الذى ينتسب الى المجتمع الصناعى أو يعيش فى محيط ثقافى هو غير الفرد الذى ينتسب الى المجتمع الفلاحى أو يعيش فى بيئة تسود بها الامية أو العقلية الخرافية .

والعائلة وافراد الاسرة ابسط مثل موضوعى للبيئة الاجتماعية فى طبع سلوك الافراد واكتسابهم لبعض الخصال والعادات والميزات الفردية حتى اننا لا نجد اى تشابه يذكر بين افراد العائلة الموسرة وافراد الاخرى المعوزة الفقيرة ولابن من نشأ يتيما ولا بين من تربى فى احضان اسرة افرادها على حظ من الثقافة والعلم أو الذى تعهدته اسرة امية او ذات خصال سيئة .

والبيئة كأساس للفروق الفردية هى التى تغذى ميول الافراد وتوجه استعداداتهم ومن امكاناتها وظروفها تنبثق حاجات الافراد وتتحدد نوعيتها وبالتالى أسلوب ارضائها واستيفاء مطالبها .

هذه الميول والاستعدادات والحاجات هى المجال الذى تتجلى فيه الفروق الفردية وهى تابعة فى نوعيتها واسلوبها الى نمط البيئة ونوع الحياة الاجتماعية باعتبار البيئة الجغرافية هى ارضية للنشاط الفردى . هذه الارضية تتحكم فى كيفية السير فى مجالها او مزاولة اى نشاط بها وما دامت البيئة الاجتماعية مجالا للعلاقات مع الاخرين علاقات التفاهم والتعاطف والتجاوب وعلاقات التعاون والتعامل أخيرا فان نوع هذه العلاقات تطبع الفرد

فى خصائصه الفردية وسلوكه العام وطبعه الخاص بمعنى ان تكون له من الفروق الفردية ما تمليه عليه نوعية تلك العلاقات فى البيئة الاجتماعيـــة .

والثقافــة أساس ثالــث للفروق الفرديــة .
والمقصود بها ثقافـــة الفكر والمعتقـــدات والتـــراث والتقاليد والثقافة السائدة فى المجتمـــع فى حجمهـــا ونوعها من جهة والوسائل الثقافية كالتربية ومؤسسات التعليم من جهة اخرى هذه الثقافة ووسائلها لها اثرها على الفرد بشكل مباشر وغير مباشر فهـــى تطبع وجهة نظره وتجعل له مفاهيم خاصة للاشياء وما جريات الامور وعلى ضوء تلك النظرة والمفاهيم تكون للفرد عقلية خاصة وتصرف معين مع الاشياء والناس اى تكون للفرد فروق فردية خاصة بـــــه مصدرها ما يعرف وكيف يعرف وهو ما يجعل فى المثقف ما يختلف به عن الامى حتى وان كانا على درجة واحدة من الذكاء والقـــدرة فهما يختلفان حتمـــا فى السلوك وطريقة العمل واسلوب الحياة . واختلاف نوع الثقافة ومصدرها واتجاهها يجعل من المثقفين انفسهم عناصر متنافرة او مختلفة كما ان حجم الثقافة هو الآخر يبث فى الفرد ما يمكن فيه الذاتية ويقوى لديه قدرة المجابهة او حسن التعليل والحكم وفى حالة الانحراف يكون حجم الثقافة مصدرا استعلاء وغرور او ثقة عمياء الى حد التهور اى موكـــب الجهل او النقـــص .

قد يظهر ان الثقافة كأساس للفروق الفردية هو عامل متأخر لا يكون له مفعول الا بعد النضج واكتمال اهم مراحل النمو والحقيقة عكس ذلك لان المقصود بالثقافة هى الثقافة السائدة كما سبقـــت الاشارة الى ذلك ، السائـــدة فى الاتجـــاه الفكـــرى للمجتمع وفى نظمه واخلاقه واحكامه وفلسفته فـــى الحياة ، والطفل يتشبع بكل ذلك منذ نعومة اظفاره بشكل غير مباشر عن طريق الاسرة والرفاق ووسائل الدعاية والاعـــلام والاذاعة وبشكل مباشر عـــن طريق الاستاذ والكتـــاب والمدرسة ومـــواد المنهاج الدراسى ثم يتواصل اثر الثقافة فى تطبيع مميزات الفرد مع استمرار الثقافة واستخدام مادتها وتسخيرها فى مهمات الفرد وحاجاته .

ثم ان هذا العامل الثقافى فى تطبيع مميـــزات الفرد لينفرد بأثر فعال لانه فحوى المفاهيم والعقلية التى يعتمدها الفرد فى سلوكه وتعامله وليس معنى هذا ان للاسس الثلاثة من وراثـــة وبيئة وثقافـــة اسبقية فى اعتبار احدها دون الآخر فكلها تعتمل فى الفرد بشكل خاص وان كانت بدرجات مختلفة الا انها فى مجموعها تكون ثالوثا متكاملا فى أثره وفعاليته .

والشىء الهام فى موضوع الفروق الفردية هو ما يحتله من اهمية بالغة فى ميدان التربية والتعليم لا كمبدا اعتباطى وانما كحقيقة موضوعية تراعـــى والى اقصى حد ممكن فى معاملة النشء وتربيـــــة الافراد واعداد المناهج الدراسية وفى عمليات التوجيه المدرسى واساليب التعليم وطرق التدريس .

وقد زاد من هذا الاهتمام بالفروق الفردية ما اصبحت تؤكده ابحاث ودراسات علم النفس التربوى وما كشف عنه من خبايا النمو اصبحت معه عمليـــة التربية والتعليم سلبية لا جدوى منها متى اغفل فيها جانب الفروق الفردية .

وما اهتمام رجال التربية والتعليم اليوم بدراسة الطفولة ومراحل النمو الا وسيلة لضبط حقائق التغير والتطور لدى العنصر البشرى وحصر القواعد والانماط العامة لذلك الا أن الخطأ وكل الخطأ هـــو الاقتناع بالمبادىء العامة فى ميـــدان التربية والتعليـــم دون الالتفات الى ظاهرة الفروق الفردية على أنها هـــى الاســاس وجوهر المشكل لمعالجـــة قضايا التدريس والطرق والمناهج الدراسية والتوجيه المدرسى واخيرا كل معضـــلات التربية والتعليم ما دام الطالـــــب والتلميذ هما محور التربية والغاية المتوخاة من وراء كل عمليات التعليم والتدريس .